

التفصير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(12-73): تفسير الآيات 45-39 ، سياسة الله مع خلقه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-03-2005
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .
أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة الأنعام .

مثل المؤمن وغير المؤمن كمثل الحي والميت :

مع الآية الأربعين، وهي قوله تعالى :
فُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَأْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتُكُمُ السَّاعَةُ أَعْيُرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40)
سورة الأنعام
والآية التي قبلها :
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَّاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

سورة الأنعام
أيها الإخوة، كما أن في عالم المادة هناك نور وظلام، كذلك في عالم الإيمان، هناك إنسان يرى وهناك إنسان أعمى، وإذا وسعنا الدائرة هو أصم عن سماع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه .
أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبَعْثَثُونَ (21)

سورة النحل
مثل الرجل المؤمن وغير المؤمن كمثل الحي والميت (**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ**)
وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبورِ (22)
سورة فاطر

تعريف الحياة والموت في عالم الإيمان :

يعني أحد العلماء الغربيين، وهو من كبار علماء الفيزياء يقول: كل من لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، علية هي أعلم ما تكون، حكمة هي أحكم ما تكون، فهو إنسان حي ولكنه ميت، هذا المعنى ذكره بعض الشعراء :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

قد تجد إنساناً يتمتع بأعلى درجة من الحيوية والنشاط والشباب، ولكنه عند الله ميت، وقد تجد إنساناً اصطلح عليه الأمراض وهو حي في أعلى درجات النشاط الإيماني .

في أيها الإخوة، الحياة والموت في عالم الإيمان معرفة الله والغفلة عنه، الحياة والموت في عالم الإيمان اتصال بالله وانقطاع عنه، الحياة والموت في عالم الإيمان عمل صالح وعمل سيء، إقبال وإعراض، استقامة وانحراف .

فالإنسان له وجود مادي يشبه في هذا الوجود بقية المخلوقات، وله وجود إنساني هذا الوجود يعني أن يؤمن ، وأن يعرف ربـه ، وأن يعرف سر وجودـه ، وغاية وجودـه ، ويـعني أن يـتحرك وفق ما خـلق له ، فـذلك

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌ) يعني لهم آذان موسيقية رائعة، يستمعون إلى الموسيقى وإلى الغناء، ويفرقون بين المعنـين والمـعنيـات، الأـحيـاءـ منـهـمـ والأـمـوـاتـ، ولـكـنـهـمـ صـمـ عنـ سـمـاعـ الـحـقـ، ولـهـمـ لـسـانـ طـليـقـ، أدـباءـ وـشـعـراءـ، يـنـطـقـونـ بـالـشـعـرـ وـالـعـزـلـ، وـمـاـ إـلـىـ ذـلـكـ، ولـكـنـهـمـ بـكـمـ عنـ أـنـ يـنـطـقـواـ بـكـلـمـةـ الـحـقـ، يـتـواـطـئـونـ معـ الـكـفـارـ وـالـمـشـرـكـينـ، فـيـصـمـتـ لـسـانـهـمـ عنـ النـطـقـ بـالـحـقـ، مـعـنـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: (صـمـ وـبـكـمـ) أي لا يستمع إلى الحق.

ثلاث طرق سالكة لمعرفة الله :

وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعْنَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِئُونَ (14)

سورة البقرة

معنى صم أي: لا يستمع إلى الحق، جعل الشهوة حجاباً بينه وبين الله، جعل شهوته ومصلحته ولذاته وزروته وغرائزه حجاباً بينه وبين الله، صم لا يستمع إلى الحق، ولو وصلت موجات أصوات الحق إلى طبلة أذنه لكنه لا يستمع، لأن عالمة استماعه مبادرته إلى التطبيق، عالمة استماعه للحق أن يُترجم هذا السـمـاعـ إلىـ سـلـوكـ، وـإـلـىـ اـنـضـباطـ، وـإـلـىـ التـزـامـ، وـإـلـىـ عـلـمـ طـيـبـ .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) لأن الطريق الوحيد إلى معرفة الله آياته ، والدليل :

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْثُلُ هَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَعَائِتِهِ يُؤْمِنُونَ(6)

سورة الجاثية

لا سبيل إلى معرفة الله إلا من خلال آياته الكونية والتکوینية والقرآنیة، ثلاثة طرق سالكة لمعرفة الله، أن تتفكر في آياته الكونية، وفي آياته القرآنیة، وفي آياته التکوینية هم (صم وبكم) وعمي، أي (في الظلمات) وشتان بين لا تملك عيناً، أو أن تكون في مكان مظلم، النتيجة واحدة، يستوي المبصر مع الأعمى إذا كان المبصر في مكان مظلم، لأن العين لا ترى إلا من خلال وسيلة وهي الضوء. فإذاً هو لا يرى الحقائق رؤية ذاتية، ولا يصغي إلى الحق لوجهه من إنسان، ولا ينطق به لو كان النطق به ضرورة.

(فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الحقيقة أن مشيئة الله مرتبطة بأعمال الإنسان .

المقدمات لها نتائج :

قال تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(107)

سورة النحل

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرْتُ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَعْفُرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6)

سورة المنافقون

ما دام هناك فسق، أو ظلم، أو كفر، فهذا الإنسان بعبارة يذكرها العلماء تحصيل حاصل، يعني أنا حينما أغلق الباب الخارجي للمسجد فهذا الباب لا معنى له، ولو كان مفتوحاً، ما دمت قد أغلقت الباب الخارجي فسواء أغلقته أم لم أغلقه فالمحصلة واحدة ، إذاً الذي جعل شهوته حجاباً بينه وبين الله فهو أصم أبكم أعمى ، هو اختار الشهوة، إذاً جعل الشهوة حجاباً بينه وبين الله وكأنه أراد الضلاله .

للتقريب: كل بلد لها نظام معين، لو أن بلدًا ما نظمها أن الإنسان لا يعيَّن في وظيفة مرموقة إلا بشهادة عليا، ليس رائجاً في هذا البلد إلا الوظائف مثلًا، فلما يعرض الشاب عن الدراسة باختياره وبإصراره فكانما اختار أن يكون فقيراً، أو مشرداً، أو ليس له عمل، مادامت القناة الوحيدة الصالحة للوظيفة شهادة عليا، وما دام الشاب أعرض باختياره وبإصراره عن سلوك طريق العلم، فكانه أراد أن يكون بلا عمل، وأن يكون فقيراً كلاماً على الناس، بالضبط.

عندما يختار إنسان السرقة والجريمة، وحينما يُقْبَض عليه يُعدم كأنه اختار أن تنتهي حياته بالإعدام، اختياره هذا، كل مقدمة لها نتائج، بالضبط، المقدمات لها نتائج، أنت إذا اخترت المقدمة أو سلوك حتماً إلى النتائج، هذا من باب البلاغة ،

(مَنْ يَشَا اللَّهُ يُضْلِلُهُ) الإنسان هو الذي شاء الشهوة، شاء الزنا، شاء الربا، شاء السرقة، شاء أن يخرج عن منهج الله، وشاء أن يخرج عن مبادئ فطرته، والناتج حتمية، هذه المقدمات لها هذه النتائج، فالذي يختار المقدمة هو حكماً اختار معها النتيجة (مَنْ يَشَا اللَّهُ يُضْلِلُهُ) ومن يشاء أن يكون تحت مظلة الله عز وجل، أن يكون في حركته في الحياة وفق منهج الله، من شاء أن يطلب العلم، ومن شاء أن يعمل به، ومن شاء أن يكون عمله صالحًا يتبعه وجه الله، يعني شاء الهدایة، وشاء أن يكون على صراط مستقيم، هذه الآية تفيد أن في الكون قوانين، المقدمات لها نتائج.

ما من عقيدة شلت الأمة وجعلتها في مؤخرة الأمم كعقيدة الجبر :

مرة التقى طبيب بإنسان يدخن، قال له: أنت ينتهي بك الدخان إلى الجلطة، أقسم لي بالله أنه بعد ستة أشهر - هو طبيب قلب - جاءه هذا الإنسان، وقد أصيب بجلطة في قلبه، الطبيب لا يعلم الغيب، لكن يعلم المقدمات والنتائج، هذا السلوك ينتهي إلى كذا.

أقسم لي طبيب آخر جراح قلب ، قال لي : والله من ثمانى سنوات ، وأنا أجري كل يوم عملية قلب ، أقسم بالله - مع تأكيد القسم - أنه ما أجرى عملية قلب مفتوح إلا لمدخن ، فإذا كان إنسان يبالغ في التدخين ، وقال له الطبيب : أنت اخترت الجلطة، يعني هو اختار مقدمة لهذه النتيجة، هذا المعنى بالذات، اختار مقدمة ، والمقدمة تنتهي إلى هذه النتيجة ، فهذا معنى قوله تعالى: (مَنْ يَشَا اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَا يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أقول لكم أيها الإخوة، وأعني نفسي أيضاً إياكم ثم إياكم أن تتوهموا أن الله يجبر عباده على معصيته، حاشى الله .

وَإِذَا فَعَلُوا فُحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا أَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهَا فَلَمْ يَأْمُرْ بِالْفَحْشَاءِ وَمَا يَنْهَا
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(28)

سورة الأعراف

وما من عقيدة شلت الأمة وجعلتها في مؤخرة الأمم كعقيدة الجبر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلَيَؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلَيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعْيِثُوا يُعَذَّبُوا بِمَا إِكْلَمْهُلْ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِسَاسَ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا(29)

سورة الكهف

آيات من القرآن الكريم عن عظمة الله سبحانه :

ذكرت هذا التعقيب لئلا يتوهم مُتوهّم أن الله قال: (مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ) لماذا أضلَهُ؟ إله عظيم .

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهُنَّ نُجَزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ(17)

سورة سبا

إله عظيم :

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8)

سورة الزمر

إله عظيم يقول :

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتُوْنَ(18)

سورة السجدة

إله عظيم يقول :

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36)

سورة القلم

إله عظيم يقول :

أَفَمْنَ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَا يَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعَنَاهُ مَتَّاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61)

سورة القصص

إله عظيم يقول :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنَّ نَجْعَلُهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21)

سورة الجاثية

علينا فهم الآيات كما أراد الله عز وجل :

قال تعالى :

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوْلَيْهَا فَأَسْتِقْوْا الْخَيْرَتِ إِنَّ مَا تَكُونُوا يَاتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ(148)

سورة البقرة

وقال :

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)

سورة الإنسان

وقال :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا أَبَاوْنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَأْفُوا بِأَسْنَا (148)

سورة الأعجم

لا ينبغي أن نفهم هذه الآيات على غير ما أراد الله عز وجل (من يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ) بمعنى من مشى في أسباب الضلال فالنتيجة مُحقة، ومن مشى في أسباب النجاة والصلاح فالنتيجة مُحقة، وفي عالمنا الدنيوي، في المجتمع المدني، مواطن مستقيم لا يخالف القوانين ويدفع الضرائب، حر طليق، مواطن يخالف القوانين، ويقترب الجرائم، في السجن، في المجتمع المدني، هل يعقل أن نقول: إن الدولة أرادته أن يكون في السجن، الدولة لا تفعلها، نقول له: هو في السجن، لأنّه ارتكب جريمة قتل، إذاً هو في السجن، إذاً: (من يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

الأية التالية تبين أن الإيمان في الأصل فطري :

الآن هناك آية تؤكد أن الإيمان في الأصل فطري، تصور فريقاً من الخبراء من بلد في الماضي كان يؤمن بأنه لا يوجد إله - هم ملحدون - ركبوا طائرة، ودخلت في غيمة مكهربة، فاختلت توازنها، وكادت تسقط، فإذا بكل هؤلاء الخبراء الملحدون يقولون: يا الله ، معنى ذلك أن الإيمان فطري، وهذا المعنى ورد في القرآن كثيراً، أي إنسان مهما بدا فاسقاً فاجراً منحرفاً، حينما يأتيه الخطر يقول: يا الله، إذاً يقول الله عز وجل:(فَلَمَنْ أَرَيْتُكُمْ إِنْ أَتَأْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَأْكُمُ السَّاعَةُ أَعْيَنَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(فَلَمَنْ أَرَيْتُكُمْ) أي أرأيتم أنفسكم، سمعت أنه في بلد مسلم أصابه زلزال، فالمساجد عقب الزلزال، الحرم والصحن في الأوقات الخمس مختلفة، معنى ذلك أنهم علموا أن هذا الزلزال عقاب لهم على فسقهم، وانحرافهم، وفجورهم، فهناك إيمان فطري، فهذا الذي يدعى أنه إنسان علماني، وإنسان موضوعي، وإنسان يؤمن بالعلم فقط، والدين خرافية، والدين ضبابيات، والدين غبيات، والدين عادات وتقالييد، بينما يشعر أن فيه ورم خبيث، والتقرير أمامه، يا رب، لا إله غيرك، اختلف وضعه، ما أجمل أن تكون صحيحاً قوياً معافى، وأن تقول: يا رب، هذه بطولتك، أي إنسان كائنًا من كان عقب المصيبة يخضع لله لكن هذا خضوع المضطر، أما إذا كنت حراً وأنت صحيح، قوي، غني، معافى، شاب، لا

تشكو شيئاً، يا رب ليس لي غيرك، فخضوعك لله وأنت قوي، صحيح، شاب، بطولة، أما كل إنسان بعد الورم الخبيث، وبعد تشمع الكبد، وبعد الفشل الكلوي، يقول: يا رب، طبعاً يا رب، لأنه لا إله غيره، هذا صبر المُكرَّه، فما أجمل الإنسان أن يعرف الله وهو في الرخاء، ما أجمله أن تأتي بيته وأنت صحيح معافي .

علينا أن نعرف الله في الرخاء لا بعد الشدة :

والله أيها الإخوة، أنا اطلعت على إخوة كثيرين، هم طيبون، لكن إقبالهم على الله بدأ بعد المصيبة، على كل حال جيد، لأنه من لم ثحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر .
كان أحدهم إنساناً شارداً عن الله شروداً بعيداً، جاءته أزمة قلبية وهو في ريعان القوة، والغنى، والعلاقات، والاتصالات، فأدخل إلى المستشفى في العناية المديدة، وغلب على يقينه أنه ميت، ولن يعود إلى البيت، فناجي ربه، وقال: يا رب، أتحب أن ألا يك بلا ثياب، أعطني مهلة ، فلعلني أتوب إليك ، الله عز وجل أعطاه مهلة، وذاق طعم القرب، يقول لي: في ساعة من ساعات المناجاة، قلت: يا رب، كل هذه السعادة بسبب هذا المرض الذي ألم بي؟ وكان سبب توبتي إليك، لم لم يكن هذا المرض قبل عشر سنوات!!

أحياناً الله يتدخل تدخلاً لصالح العبد، يكون غافلاً، شارداً، ساهياً، لاهياً، الدنيا أخذته، المال يعبده من دون الله، يعبد شهوته من دون الله، فإذا جاء ما يحول بينه وبين شهوته يتوب، وقد قال الله عز وجل :

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعَلَ بِأَنْسِيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلٍ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍ مُرِيبٍ(54)

سورة سباء

حينما يحال بينه وبين شهوته يعلم أن الله حق، أنا أتمنى على إخوتي الكرام، وأخاطب نفسي معهم أن نعرفه في الرخاء، فال موقف مُشرّف أن تعرفه في الرخاء، لا أن تعرفه عقب الشدة، على كل بعد الشدة لو عرفته وتبت إليه جيد جداً، لكن شتان بين من عرفه في الرخاء، وبين من عرفه بعد الشدة.

(فَلَمَّا أَرَيْتُمْ أَنفُسَكُمْ إِنْ أَتَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَكُمُ السَّاعَةُ أَغْيَرُ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

هذا هو الإيمان الفطري، والإيمان أيها الإخوة ، الإيمان واقع لا محالة، لكن قد يقع بعد فوات الأوان، ولا قيمة له إطلاقاً، أنا أؤكد لكم أنه ما من إنسان على وجه الأرض ستة آلاف مليون عند الموت يؤمنون بما جاء به الأنبياء، قوله واحداً ، ولكن هذا الإيمان لا ينفعهم، إذا خيّرنا مع الإيمان خيار وقت فقط .

إِنْ كُنْتَ مُفْتَرًا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ فِي الرَّخَاءِ تَكُنْ أَقْوَى النَّاسِ :

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيُكْسِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتُنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41)

سورة الأنعام

بِلْ إِيَاهُ تَدْعُونَ) وحده، التوحيد فطري مغروس في أعماق الإنسان، لكن لا يظهر إلا عند الشدة،
أما في الرخاء تقول: زيد وعيبد، وفلان وعلان، وحجمي المالي كبير، وخبرتي المتراكمة، وأنا ابن
عائلة، وأنا كذا، كله أنا وأنت في الرخاء، تأتي الشدة، يا رب، لا إله غيرك، فأنت إن كنت مُفتقرًا إلى
الله وأنت في الرخاء تكون أقوى الناس، إن افتقرت إلى الله وأنت في الرخاء تكون أعلم الناس، إن
افتقرت إلى الله وأنت في الرخاء تكون أغنى الناس، تكون أحكم الناس إن افتقرت إلى الله وأنت في
الرخاء، فإذاً أي إنسان يفتقر إلى الله في الشدة .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّةٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(42)

سورة الأنعام

ثمة أمم فسق، وفجرت، وأشركت، وكفرت، بل وأنكرت وجود الله أصلاً، لأن هذه الأمم مدعوة إلى الله عز وجل، وحُلِقت لتعرفه، وحُلِقت للجنة، لم يخلق الله مخلوقاً إلا للسعادة.

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلْقُهُمْ وَتَمَتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْحَنَّةِ وَالنَّاسِ

(119) أَجْمَعِينَ

سورة هود

هذه الأمم التي أرسل الله إليها اليساء والضراء لأنها شردت عن الله عز وجل، ساق لها هذه العلاجات التربوية.

سياسة الله عز وجل مع خلقه أربع مراحل :

وكلم يعلم أيها الإخوة أن الله عز وجل سياسته مع خلقه أربع مراحل، أول مرحلة هي أجمل مرحلة، وأسلم مرحلة، والطف مرحلة، يدعوك دعوة بيانية تسمع درساً، تسمع خطبة، تقرأ كتاباً، تسمع شريطاً، تسمع موعظة، تسمع نصيحة، وأنت صحيح، معاذ، قوي، غني، ليس عندك مشكلة، هذه الدعوة البيانية، هذه الطف دعوة، وأكمل دعوة، وأنعم دعوة، فالموقف الكامل منها أن تستجيب الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اسْتَجِبُو لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبُّكُمْ وَأَعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ

(24) الْمَرِءُ وَقَلْبُهُ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

سورة الأنفال

كى تعيش الحياة التي حُلقت من أجلها، كى يحيا قلبك، كى تحيَا نفسك، كى تحيَا بقربك من الله، فالإنسان لم يستجب، ما دام لم يستجب يخضعه الله ل التربيةِ، أو لإجراء آخر، يسوق له شدة، هذا يسمى التأديب التربوي .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

سورة السجدة

في الدعوة البيانية ينبغي أن تستجيب، وفي التأديب التربوي ينبغي أن تตอบ، ما تاب الإنسان،
ولا استجاب، فعندها مرحلة ثالثة لكنها خطيرة، الإكرام الاستدراجي، يعطيه الدنيا، كما تشاء، أموال،
وصحة ، ومكانة ، وشبكة علاقات، ما شكر! بقي آخر حل، القسم، الدعوة البيانية، أكمل موقف منها
الاستجابة، التأديب التربوي أكمل موقف فيه التوبة، الإكرام الاستدراجي أكمل موقف فيه الشكر، فهو
لا استجاب ولم يتبع ولم يشكر .

ما دامت الشدائـدـ الـتـى تـحـيـطـ بـنـاـ حـوـافـزـ إـلـىـ اللهـ وـمـادـمـ هـنـاكـ بـقـيـةـ حـيـاةـ فـهـذـ الـبـقـيـةـ نـعـمـةـ :

قال تعالى :

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُنْلِسُونَ (44)

سورة الأنعام

تسمعون عالم غني، قوي، متغطرس، متكبر، يكيل بمليون مكيال، وأقوياء، وأغنياء، وأذكياء، وحياتهم مرفهة (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكْرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ) مال، نساء، بلاد جميلة خضراء، غطرسة، كبير، هذه الثالثة الإكرام الاستدراجي (حَتَّىٰ إِذَا فَرَحُوا بِمَا أَوْتُوا أَخْذَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) فنحن ما دمنا في العناية المشددة، وما دامت الشدائـ التي تحيط بـنا حوافر إلى الله، نحن بـخير، مـadam هناك بـقـية حـيـاة، بـقـية خـوـف من الله، بـقـية رـحـمة، بـقـية إـنـصـاف، بـقـية صـدـق، بـقـية أـمـانـة، بـقـية عـفـة، بـقـية مـحـبة، فـهـذه الـقـلـاـيا نـعـمـة لأنـ ثـمـة حـيـاة .

الآن الطبيب ينظر إلى مريض، يظنه مات، يمسك النبض، يدقق، ليس فيه حركة أبداً، كل واحد منا يضع يده على مكان شريان يشعر بالنبض، فالطبيب يضع يده على شريان في المعصم، لا يوجد أي حركة، قد يكون القلب نبضه ضعيف جداً ، يأتي بمرأة يضعها أمام أنفه ، إذا ظهر عليها بخار ماء فهو

يتنفس، ليس هناك بخار ماء، يأتي بمصباح شديد، يفتح عينه، ويضيء المصباح، إذا صغرت الحدة فهناك ردود فعل، لا الحدة صغرت، ولا المرأة انطبع عليها بخار الماء، وليس هناك نبض، يقول: عظم الله أجركم، ميت، هكذا الوضع.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذِكْرُوا بِهِ فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْتَسُونَ) إذا: (ولَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْ أُمِّ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) هذا التأديب التربوي، الأكمل :

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسْتُ قُلُوبَهُمْ وَرَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(43)

سورة الأن

بطولتنا ألا نصل مع الله إلى طريق مسدود :

يعني الزلزال الذي حصل في شرق آسيا، أي طرح أن هذا عقاب من الله، وتأديب، وهذه السواحل فيها فسق، وفحور، وفيها ثمانمائة ألف غلام للجور بهم، وفيها كل أنواع المعاصي التي تحرمها الشرائع الثلاث، لا يرضى أن يكون هذا الطرح، إلا أن يكون اصطدام لوحين سبب هذه الكارثة، أي طرح توحيد سماوي مرفوض، وأي طرح شركي أرضي مقبول ، فلذلك :

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسْتُ قُلُوبَهُمْ وَرَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذِكْرُوا بِهِ فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْتَسُونَ)

أنا سمعت أن الدين - والعياذ بالله - يتعاطون الحشيش يشترون قطعة غالية جداً يسمونها (بلغة) يأخذها أحدهم فيشعر أنه يحلق في الأجواء، أي صوت عنيف يُطير له هذه البلعة، فجأة، هذا الإنسان عندما يكون بعيداً عن الله يكون غنياً وقوياً، والأمور كلها بين يديه، والملذات، والشهوات تأتيه مصيبة، ويجد نفسه في قبضة الله عز وجل . نحن بطولتنا إليها الإخوة ، ألا نصل مع الله إلى طريق مسدود .

كل إنسان يموت على نيته :

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْ أُمِّ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسْتُ قُلُوبَهُمْ وَرَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذِكْرُوا بِهِ فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْتَسُونَ(44)

للتوسيح، وقد ذكرت هذا مراراً ، ما كل من هلك في زلزال آسيا غير مؤمن، كل إنسان يموت على نيته ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

إن الله تعالى إذا أنزل سطوته على أهل نعمته فواقت آجال قوم صالحين فأهلكوا بهلاكهم ، ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم

البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها

هذا موضوع ثانٍ، يعني التعميم من العمى، ما كل إنسان أهلك بزلزال ليس مؤمناً، قد يكون هناك مؤمنون، قد يكون هناك غير مؤمنين، مصيبة واحدة لبعضهم عقاب، ولبعضهم امتحان، ولبعضهم ترقية.

دائماً دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان :

فَقُطِعَ دَأْبُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)

سورة الأنعام

يعني هذا الظلم مرتعه وخيم، والله عز وجل يقول :

فُلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَهَادُ (12)

سورة آل عمران

لكن دائماً دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان ، يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم .

إِمَّا نُرِيَّنَا بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَا فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ أُنَّا اللَّهُ شَهِيدُ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46)

سورة يونس

معنى ذلك حتى النبي الكريم، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، قد لا يمتنع عينيه بنصر الله عز وجل، نحن مؤمنون وصابرون، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يحفظ بلادنا من كل مكروه.

والحمد لله رب العالمين